

الاحتكاكات اليومية والصراعات

بين مهاجري جنوب الصحراء في غيتو مدينة الدار البيضاء:

مقاربة إثنوغرافية

عزالدين الميموني

طالب باحث في سلك الدكتوراه

مختبر المجتمع المغربي: الديناميات والقيم شعيب الدكالي الجديدة

elmaimouni.azddine@ucd.ac.ma

المملكة المغربية

الملخص:

تتناول هذه الدراسة إشكالية الاحتكاكات اليومية بين مهاجري جنوب الصحراء في الغيتو، والكيفية التي تؤدي بها هذه الاحتكاكات إلى إنتاج الصراعات اليومية بين المهاجرين الذين يعيشون في الغيتو بمدينة الدار البيضاء، والذي يضم مهاجرين من السنغال ومالي وغينيا وبوركينا فاسو والكاميرون وكوت ديفوار، من زاوية إثنوغرافية، باعتماد الوصف الإثنوغرافي المرتبط بالبناء الكثيف وما تقدمه شبكة إخباريين، سواء في جمع المعطيات أو في بناء تحديد للصراع أو الغيتو الخاص بهم وقد كشفت هذه الدراسة عن نتائج مهمة، ذلك أن الصراعات اليومية تبدأ بصراع بين مهاجرين اثنين لتتحول إلى صراع هوياتي تدافع فيه كل جماعة مهاجرة عن العنصر الذي تنتمي إليه، باستعمال القوة العددية، مما يجعل من حوكية عبورهم من بلدانهم إلى المغرب عاملاً مهماً في بناء قوة المجموعة أو في ضعفها في عبور الحدود إلى أوروبا.

الكلمات المفتاحية: الاحتكاكات، الصراع، الغيتو، المهاجرون، الدار البيضاء.

summary

This study examines, from an ethnographic perspective, the issue of daily interactions among sub-Saharan migrants within the "ghetto"—a specific enclave in Casablanca housing migrants from Senegal, Mali, Guinea, Burkina Faso, Cameroon, and Côte d'Ivoire. Utilizing ethnographic description—specifically "thick description"—and insights from a network of informants regarding data collection and the conceptualization of both the conflict and the ghetto itself, the study reveals significant findings. It shows that daily disputes between two individual migrants can escalate into identity-based conflicts, wherein each migrant group rallies to defend its own members through numerical strength. Consequently, the dynamics of their initial journey from their home countries to Morocco emerge as a crucial factor determining the group's strength—or weakness—in the subsequent attempt to cross borders into Europe.

تقديم

شكلت سياسة الترحيل¹ من المناطق الحدودية: الفنيدق، وطنجة، والناظور، باتجاه المدن الداخلية، كالدار البيضاء وقرنيت، سببا في تكون غيتوات صغيرة في قلب المدن. فبعد أن وجد المهاجرون المرحلون أنفسهم قرب المحطة الطرفية بولاد زيان بالدار البيضاء، بدأوا يجتمعون وينامون بجانب المحطة بعد تقييد وتعطيل حركتهم تجاه الحدود، ثم تحولوا للعيش في الملعب الصغيرة المقابل للمحطة الطرفية، حيث شيدوا فيه غوفا صغيرة تحميهم من صقيع البرد في فصل الشتاء والحرارة في الصيف، في شكل خيمات مصنوعة من البلاستيك والخشب المثبتة بالمسامير والأسلاك، تشبه تلك التي يشكونها في غابات الحدود بالفنيدق. غير أن وجودهم في هذا المكان ليس فوضوياً، بل منظم؛ حيث قاموا بتقسيم المكان حسب الانتماء إلى البلد، فهناك مكان مخصص للسنغاليين وغامبيا معاً، ولالإيفوريين، والغينيين، والكاميرونين، ويوكينا فاسو، والمالين. ولكل مجموعة قائد يسيروها وينسق مع زعماء المهاجرين الآخرين، بالتنسيق مع الزعيم الذي يسيروا الغيتو بشكل كامل ومساعدته الذين يسهرون على تطبيق القانون ومعاينة المخالفين للقوانين. إلا أنه نتيجة المساحة الصغيرة التي يعيشون فيها والمكتظة بالمهاجرين وتويع الهويات، تؤدي بعض الاحتكاكات اليومية بينهم إلى إنتاج صراعات شبه يومية تتمدد أو تنقلص حسب قوة المجموعات المهاجرة المشكلة للغيتو. تلك هي المشكلة التي يعالجها هذا المقال، والتي يمكن ترجمتها إلى السؤال الإشكالي التالي: كيف تؤدي الاحتكاكات اليومية بين المهاجرين إلى إنتاج الصراعات اليومية بينهم وإعادة تشكيل علاقات القوة بين المجموعات المهاجرة؟

تهدف في هذا المقال إلى تسليط الضوء على جانب خفي من الحياة اليومية بين المهاجرين الذين يعيشون في المغرب، وبالضبط المهاجرين الذين كانوا يعيشون في الغيتو بالدار البيضاء. ويرتبط هذا المقال بتحليل وسرد الصراعات العنيفة فيما بينهم، والتي تمارس داخله، حيث تتوسع دائرة العنف أو تنقلص حسب قدرة الفاعلين على ضبط إيقاع الصراعات. وبالتالي، سوف نتطرق إلى الكيفية التي يُعرف بها المهاجرون وضعيات وسياقات تشكل الغيتو، والقوانين التي صاغها المهاجرون، والكيفية التي تؤدي بها الاحتكاكات اليومية إلى تشكل صراع بين المهاجرين، وإلى المنهجية المعتمدة في جمع المعطيات المرتبطة بإثنوغرافيا البناء الكثيف.

أولاً: غيتو المهاجرين المؤقت: الاحتكاكات اليومية وإنتاج الصراع:

أنت في "غيتو السود"، بهذه العبارة يصف المهاجرون الفضاء الذي يعيشون فيه، والذي تشكل نتيجة عملية الطرد وسياسة الترحيل من المناطق المحاذية لكل من سبتة ومليلية المحتلتين، حيث لا يستطيع المهاجرون عبور الحدود لأنهم فاقونو للسرعة، أي مهاجرون غير شرعيين، وبالتالي يمكن ترحيلهم، مع إبقائهم في الحيز المكاني في حدود الغيتو بمدينة الدار البيضاء التي تبعد عن الحدود المحاذية لأوروبا. ويحيط بالغيتو سياج يفصل بين الخارج والداخل، والذي كان عبلة عن جدار الملعب أصبح جدراً لتحديد الحدود الفاصلة بين المهاجرين الذين يعيشون داخل الغيتو والمغاربة الذين يعيشون خارج حدوده. تختلف سمات الغيتو الذي تشكل تاريجيا والقائم على الفصل العرق² عن هذه الغيتوات المؤقتة التي يشكلها المهاجرون؛ فهي تظهر وتختفي لأنها تتشكل نتيجة سياسة الترحيل من الحدود وتعطيل حركة المهاجرين، مع الحبس المكاني والعزلة الاجتماعية، في خيمهم البلاستيكية وسط عملات سكنية بمنطقة أولاد زيان. واستمرار هذا الغيتو وبقائه يرتبطان بقرار السلطة السياسية، سواء في الطرد أو الترحيل الداخلي بين المدن الداخلية أو الخارجية نحو بلدانهم الأصلية. فكما بين عبد المالك صياد أن الطرد كان أفق حياة كل مهاجر، وهو ما يجعله عرضة

¹ Nicholas Se Genova, "Migrant illégalité and Deportability in Everyday life" vol 31 :419

.447,2002P 1 .4

² لوبيك، فاكنت، أمريكا من حيث هي مدينة فاضلة (طوبائية) مقبولة، بؤس العالم، (دمشق، دار كنعان، 2001) ص 251

الاحتكاكات اليومية والصراعات بين مهاجري جنوب الصحراء في غيتو مدينة الدار البيضاء: مقاربة إثنوغرافية عزالدين الميموني

للهشاشة اليومية¹، سواء في اختيار البقاء أو الرحيل، لأنه لا يزال مهاجرًا غير شرعي، وهو ما يبينه ديجنوف حين اعتبر أن صفة المهاجر غير الشرعي تجعل السلطة تمتلك الحق في الترحيل أو إبقاء المهاجر.

لتدبير حياة المهاجرين اليومية المعيشة في ظل الهاشاشة اليومية، قاموا بصياغة قانون ينص على (1): عدم السرقة بين المهاجرين؛ (2) احترام نظافة الفضاء؛ (3) رمي الأربال في الأماكن المخصصة لها؛ (4) عدم التبول داخل الفضاء؛ (5) عدم خلق صراع مع المغاربة؛ (6) في حالة وقوع صراع، على المهاجر أن يعالج الصراع خارج الفضاء. وتشكل هذه القوانين بمثابة قواعد للعيش بين المهاجرين، لتجنب الصراعات اليومية وتنظيم نظافة المكان من الروائح الكريهة، وذلك بالتبول في مراحض المحطة الطرقية بدل جنبات وهوامش الغيتو الذي يعيشون فيه؛ لأن ذلك ينشر رائحة التبول في الصيف بسبب تفاعلها مع الحرارة، مما يفسد عليهم أجواء العيش في المكان الذي يعيشون فيه، مع إبقاء الصراعات مع المغاربة في حدود الغيتو وعدم إدخالها إلى داخله، لأن ذلك سوف يؤدي إلى الفوضى والعنف. بهذه القوانين ينظم المهاجرون حياتهم في الغيتو. بيد أن احتكاكاتهم الداخلية في المساحة الصغيرة التي يعيشون فيها تؤدي إلى نشوب صراعات بينهم، تبدأ بشكل فردي وتتحوّل إلى صراع مجموعات مهاجرة. وبالتالي، فالاحتكاكات في هذا السياق ترتبط بتوظيفها كاستعارة مفاهيمية تساعدنا على الانتباه إلى التفاعلات والصراعات اليومية بين المهاجرين، باعتبارها تبين عدم التجانس والتكافؤ بينهم في الحيز المكاني الذي يعيشون فيه، والذي يعتمد على القوة وتغيّراتها المرتبطة بها.



عنوان الصورة: "غيتو المهاجرين"

المصدر: جريدة الاتحاد الاشتراكي، 23/9/2019

ثانياً : إثنوغرافيا البناء الكثيف

ترتبط إثنوغرافيا البناء الكثيف بأعمال بيير بورديو وعبد المالك صياد، خصوصاً في الكتاب الذي أشرف عليه بورديو والموسوم بـ«بؤس العالم»²، حيث يدعو فيه إلى الاهتمام بدراسة أحياء المهاجرين وشوارعهم، بالتركيز على البناء الكثيف بدل الوصف الخفيف

¹ Nicholas Se Genova, "expulsion, pouvoir, mobilisation " cairn info, n83, 2018, P 2.3

² بيير بورديو، بؤس العالم، ترجمة محمد صبح، (دمشق، دار كنعان، 2001)

الذي يعتمد عليه غير تر¹. حيث سوف نحلل الصراعات اليومية في ارتباطها بالسياق الذي يعيش فيه المهاجرون لهذا اعتمدنا على الإثنوغرافيا لسرد حالة صراع وقعت في الغيتو، والتي تختلف بين تلك التي حصلنا عليها من إخباريين، وبين تلك التي عايناها بالملاحظة المباشرة. لم يكن التواجد في الغيتو بالشيء السهل، بل كان بعد موافقة زعيم المهاجرين الملقب بـ (Kamara)، حيث التقيت معه بواسطة مهاجر ينحدر من نفس البلد الذي ينحدر منه زعيم المهاجرين المالي. كان شخصاً ذكياً يتحدث باللغة الفرنسية والدرجة والإنجليزية واللغات المحلية بولا، وحلّوا في الوقت نفسه. مكنتني موافقة زعيم المهاجرين من الظهور في الغيتو بشكل مرئي دون التفكير في الطرد أو المعاقبة من طرف شرطة الغيتو. وتعد الصراعات التي تقع داخل الغيتو أحد الأشكال الخفية التي لا يمكن فهمها إلا عندما تكون مهاجراً أو عندما تنخرط معهم وتصبح واحداً منهم. لقد كانت بشرتي السمراء عنصراً مساعداً في تمكّني من المشاكة اليومية في الغيتو. ولم يكن يُطرح سؤال هوياتي إلا عندما تحدثت بالدرجة أو باللغة العربية مع المهاجر السوداني الذي تفصلني عنه التجربة الاستعمارية البريطانية، أما باقي المهاجرين فنشترك معهم في المستعمر الفرنسي، لذلك كانت اللغة الفرنسية هي السائدة في المخيم.

وبالتالي، سوف تتنوع السرديات الإثنوغرافية حول الصراعات بين تلك التي عاينتها في الغيتو وبين تلك التي توصلنا بها من إخباريين، لأن ليس كل الصراعات يستطيع الباحث الحضور فيها، نظراً لتقاطعات زمانية في أحيان بين زمانيات الصراع في الغيتو وزمانيات الغياب² بالنسبة إلى الباحث. وبالتالي، فالإخباريون كانوا أيضاً مصبغاً للمعطيات الإثنوغرافية. بيد أن هذه المعطيات التي يقدمها الإخباريون لا تهدف إلى تكذيبها أو تصديقها، بقدر ما نرغب في تحليلها في سياقاتها لكشف سياقات تشكلها. لذلك سوف نعرضها ونحللها، ليس في حلود ما يتم وصفه إثنوغرافياً، بقدر ما سوف يمتد التحليل إلى البنية التي أنتجت هذه الصراعات وعلاقات القوة التي تعيد تعريفها.

1. اختطاف: قوة أكثرية وضعف أقلية:

إذا كانت حوكمة المهاجرين مقيدة، سواء في عبور الحلود أو في العودة إليها، نتيجة سياسة تعطيل حركتهم من طرف السلطة التي أنشأت حواجز تعيق حركتهم، فإن المهاجرين أيضاً أنتجوا تقييداً لحركة مهاجر آخر لا ينتمي إلى المجموعة الخاصة التي ينتمون إليها. وهذا ما لمسناه فيما أخبرنا به إخباري بقوله: "الغينيون قاموا باحتجاز مهاجر من السنغال داخل الفضاء، وقاموا بتصويره، وبعدها تم إرسال الشريط المصور إلى أبي المختطف في السنغال عن طريق الهاتف لكي يرسل النقود من أجل إطلاق سراح ابنه". (المصدر الإخباري، الدار البيضاء، أولاد زيان) تبين حالة اختطاف مهاجر من طرف فاعلين من مجموعة أخرى وتصويره وإرسال الشريط المسجل إلى الأب في السنغال قصد الحصول على النقود، في مقابل إطلاق سراحه، صورة عن التقييد والاحتجاز الذي تمارسه المجموعة التي تمتلك قوة في الغيتو على المجموعة الصغيرة. ذلك أن تدبير حالة القوة بينهم لا يرتبط بالشرطة المغربية، رغم أنهم

¹ loicwacquant , in Praise of Praise of thickconstrction, Qualitative sociology, 48, 335 – 345, 2024

² بشأن الزمانيات يمكن العودة إلى أعمال التالية:

Benoit Hachet, "enquêter sur les temporalités Application au cas des migrations" cairn info n2 2026 P 1.4

Benoit Hachet, *Sociologie des temporalités* (Paris, Armand colin, 2025)

يعيشون في المغرب وفي قلب مدينة الدار البيضاء، بقدر ما يعتمد على تديرها من طرف الشرطة التي شكلها المهاجرون والقوانين التي صاغوها لتدبير حياتهم ومعاقبة المخلفين للقوانين في أمكنة خاصة بالعقاب داخل الغيتو.

غير أن هذه القوانين لا تخضع لمنطق قانون متفق عليه بينهم بقدر ما تخضع لمنطق القوة، وهذا يتجسد في كون المجموعة السنغالية التي تعيش داخل الغيتو العشوائي لم تبادر إلى تحرير المهاجر الذي ينتمي إليها، رغم أن المسافة الفاصلة بينهم لا تتجاوز ثلاثة أمتار. ويرجع هذا إلى كون مجموعة الغينيين هي المجموعة الأكثر عدداً في الفضاء العشوائي؛ لهذا نجد هذه المجموعة الكبيرة من الناحية العددية تهيمن على المجموعة الصغيرة، مثل هيمنة الغينيين على المهاجرين السنغاليين.

فصلت مجموعة السنغاليين استراتيجية الصمت حول الواقعة عندما تخبرنا حول الموضوع، غير أن هذا الصمت مرتبط بالقوة التي تفرضها المجموعة الغينية على المهاجرين الذين لا ينتمون إلى مجموعتها؛ لهذا يقوم بعض أفرادها بالسرقة واختطاف المهاجرين وابتزاز عائلاتهم بالمال، للحصول على النقود للعودة إلى المناطق الحدودية. وهذا ما لمسناه في فترة تواجدهم مع السنغاليين في الغيتو؛ حيث التقطت صورة بهاتف مهاجر، ثم طلبت منه أن يرسلها لي لكنه لم يفعل. بعدها عدت إلى الغيتو وسألته عن الصورة، وكان الجواب: "تمت سرقة الهاتف مني". ولكن لما سألته عن الشخص الذي سرق الهاتف، فكان الجواب: "مهاجر من غينيا". وسألته: "هل تعرفه؟" فكان جوابه: "بالطبع أعرفه". ولكن لماذا لم تذهب إليه؟ فكان الجواب: "لأنه".

فكرة ترك الهاتف رغم معرفة السارق ووجود قانون يجرم السرقة توحى لنا بأن مجموعة السنغاليين لا ترغب في الدخول في صراع مع مجموعة الغينيين، رغم أن قانون الغيتو ينص على عدم السرقة بين المهاجرين. ويفسر هذا الصمت بكون الغينيين الأكثر عدداً؛ حيث بلغ عددهم، وفق الإحصائيات التي حصلت عليها من مهاجري جنوب الصحراء في الفترة التي نظمت فيها القافلة الطبية، 190 مهاجراً غينياً، عكس السنغاليين الذين يتوفرون على 44 مهاجراً. هذا الاختلاف من حيث العدد يوحي بكونية العبور عبر الحدود التي ينشطها المهاجرون، وإلى حجم المهاجرين المرحّلين في تشكيل قوة كل مجموعة. وبالتالي، فكلما زاد عدد المهاجرين العائرين للحدود والذين ينتمون إليك من حيث الهوية، ارتفعت قوتك داخل الغيتو، وكلما انخفضت الديناميات بالنسبة إلى البلد الذي تنتمي إليه، كلما ضعفت قوتك في الغيتو. لهذا نجد صراع الغينيين يتطور ليصبح في مواجهة هويات أخرى، وهي حالة صراع الغينيين ضد الكاميرونيين.

تناقض في العقاب وانتشار العنف:

تخضع بعض الاحتكاكات اليومية والمخالفات في الغيتو إلى مبدأ القوة في تدبير العقاب؛ فالمجموعة المهاجرة القوية قد ترفض تقديم المهاجر الذي ينتمي إليها، في مقابل معاقبة مهاجر آخر لا ينتمي إليها، وهذا ما وقع في حالة صراع بين المهاجرين الغينيين والكاميرونيين. وفق المعلومات التي حصلنا عليها من الإخباري: "لقد أمسكت شرطة الغيتو مهاجرين يتبولون في الداخل، من الغينيين والكاميرونيين، ويعد هذا بمثابة خرق للقانون الذي ينص على عدم التبول". أخبرنا بأن شرطة الغيتو أمسكت بمهاجرين يتبولون داخل الفضاء العشوائي، وهذا بمثابة خرق للقانون الذي ينص على عدم التبول في الفضاء العشوائي، ولكن الغينيين والكاميرونيين خرقوا القانون معاً، وتمت معاقبة الغيني عن طريق الضرب، ولكن الكاميرونيين رفضوا تقديم المهاجر لكي يعاقب، مما أدى إلى صراع في الفضاء بين الغينيين والكاميرونيين؛ لأن الغينيين يقولون: "لماذا تمت معاقبة المهاجر الذي ينتمي إلينا، والمهاجر الذي لا ينتمي إلينا لم تتم معاقبته؟". كانت الأجواء مرعبة جداً، وكان الجميع خائفاً. اختلطت الأمور واندلع القتال بين الغينيين

والكاميرونين. كان المهاجرون الكاميرونيون يحملون سكاكين ووزعوها على المجموعة التي تنتمي إليهم وكان أحد هؤلاء المهاجرين يحمل سكيناً، ورأيتُه يضرب مهاجراً غنياً ويفتح له بطنه بسكين. بعدها تدخلت الشرطة التي لم تميز بيننا، حيث ترى أن الجميع سود، ولكن هناك اختلاف بيننا: هناك اختلاف بين الغينيين والكاميرونين والماليين والسنغاليين والنيجيريين. "يختلف الصراع الذي وقع بين الغينيين والسنغاليين عن الصراع بين الغينيين والكاميرونين؛ ففي الصراع مع السنغاليين هيمنت المجموعة الغينية على الصراع لكونها أقوى من السنغاليين، بينما الصراع الذي وقع بين الغينيين والكاميرونين يرجع إلى ضبط شرطة الغيتو مهاجرين يخالفون القانون، حيث أمسكتهم وهم يتولون في الغيتو، ويعد ذلك خرقاً لنظام الغيتو ويستحقان العقاب في نظر المجموعات المهاجرة.

بيد أن العقاب شمل فقط المهاجر الغيني ولم يشمل المهاجر الكاميروني، مما جعل المهاجرين الغينيين يطالبون بمعاقبة الكاميرونين، وهذا ما لم يتم، مما أدى إلى نشوب صراع بينهم، نتج عنه فتح بطن مهاجر غيني بالسكين. فكما صرح الإخباري، فإن الكاميرونين يتوفرون على أسلحة، لأنهم هم من كانوا يترعمون السلطة في الغيتو قبل أن تتحول إلى الماليين، بعد طردهم. فانتشار الأسلحة بين المهاجرين يذكي مقولة الإخباري التي تقول: "كل مجموعة لديها أسلحة ومستعدة للحرب في أي وقت". هذا الاستعداد هو الذي جعل المجموعة الكاميرونية تجهز أسلحتها لمواجهة الغينيين، والذي أدى في آخر المطاف إلى إصابة أحد المهاجرين الغينيين بإحدى هذه الأسلحة.

ففكرة الاعتداء على مهاجر بالنسبة إلى المجموعة الغينية كانت لديها شعوراً بالنقصان أمام المجموعة الأخرى، مما ولد لديها الرغبة في الانتقام. وهذا يتجلى لنا في قول الإخباري: "هناك مهاجران كاميرونيان أتيا لزيارة شاف الماليين، لكن بمجرد أن وصلا إلى باب الفضاء حتى أتاها الغينيون مسرعين، ولما رأوا الغينيين قادمين فروا من المكان بسرعة". هذا الشعور بالرغبة في الانتقام يقودنا إلى ضرورة انسحاب مجموعة معينة من الغيتو، فكان ذلك انسحاب الكاميرونين. غير أن فكرة الانسحاب من الفضاء بمثابة طرد لمجموعة معينة من طرف أخرى، وهنا قد نتفق مع ما توصلت إليه ملري دوغلاس بقولها: "نتجت الحلود مع وجود فكرة الخطر¹ فإذا تبيننا هذا القول، فنتيجة الصراع والعنف بين المهاجرين أشكلت فكرة الخطر لدى الغينيين والكاميرونين، وهي مسألة حاضرة بقوة، وبقوتها معاً يعزز انتشار الصراع مرة أخرى بفعل الاحتكاك المشحون بينهما، كما يعيشان معاً في نصف الملعب. لذا تم طرد وانسحاب الكاميرونين من الغيتو، وتم تشييد الحلود على أساس هوياتي، رغم وجود نفس اللون؛ حلود لا يمكن تجلوزها، فكل مهاجر كاميروني يتجاوز حلود الفضاء المرسومة بينهم وبين الغينيين إلا وتعرض إلى خطر.

إلا أن هذا الصراع خلق نوعاً من الرعب في صفوف المهاجرين الآخرين، خصوصاً المهاجرين غير المعنّين بالصراع، وهم الماليون والسنغاليون والإيفوريون والبوكنافيون والغانيون والتوغوليون والتترانيون والتشاديون والسودانيون. أدى تطور الصراع إلى تدخل الشرطة لتوقيفه، غير أن هذا التدخل لم يستثن أحداً، بل شمل جميع المهاجرين، سواء من شرك في الصراع أو لم يشرك، نظراً لعدم استطاعة الشرطة التمييز بين هويات المهاجرين، لأن جميع المهاجرين بشرتهم سوداء. لهذا نجد المهاجر يصرح: "الشرطة لا تميز، لأن هناك اختلافاً بيننا؛ هذا الاختلاف يتأسس على الهوية، بينما الشرطة تنظر لنا كسود". لكن بعد انسحاب الكاميرونين لم يبقوا فقط مكان عيشهم، بل أصبحوا منبوذين، حيث فقلوا سلطتهم وقوتهم في الغيتو، وأصبحوا يعيشون في الخراج قرب المطاعم الموجودة قرب المحطة. تحولت السلطة إلى الماليين بعد انتخاب زعيم المجموعة المهاجرة المكونة للغيتو، لي (Kamara)، وهو زعيم المهاجرين الماليين.

¹ haddad. emma. "danger happens at the border" in borderscapes. hidden geographies and politics at territory s edge university of Minnesota press Minneapolis. london. 2007P. 120

2. عبور الحدود وفقدان توازن القوة:

من بين المفارقات التي تكشفها الملاحظة الإثنوغرافية أن نجاح عبور المهاجرين للحدود يضعف سلطة مهاجرين آخرين لم يحالفهم الحظ في العبور، والذين ظلوا في الغيتو بعد أن تمكنوا من اجتياز القيود المفروضة، سواء داخل المدن أو الحدود. ويعد هذا التراجع العددي في صفوف المهاجرين عاملاً يغير طبيعة السلطة في الغيتو. فالكاميرونيون كانوا من الناحية العددية المجموعة الأقوى، لكن مع نجاح مهاجرينهم في عبور الحدود تراجعت أعدادهم وقوتهم. لهذا، بعد انسحاب الكاميرونيين، لمسنا في خطاب المهاجرين تحسراً، حيث حتى انتشرت السوقة بين المهاجرين وسيادت الفوضى وصراعات مع مهاجرين آخرين. وهذا ما لاحظناه أيضاً في الفضاء، حيث نشب صراع بين مهاجر غيني ومهاجر بوركيني، إلا أن تدخل زعيم بوكينا فاسو بإبعاد المهاجر الذي ينتمي إليه حال دون تطور الصراع.

يرجع تفضيل الكاميرونيين على الغينيين إلى الممارسة التي يقوم بها الغينيون في الفضاء العشوائي من خلال سرقته للمهاجرين ومحاولة فرض سلطتهم على باقي المجموعات الأخرى، الأمر الذي جعل المجموعة الأخرى تفضل الكاميرونيين على الغينيين، كون الكاميرونيين أقل عدداً من الغينيين. فمن خلال المعلومات الإحصائية التي حصلنا عليها حول عدد المهاجرين الذين يعيشون في الفضاء، تبين لنا أن عدد المهاجرين الكاميرونيين الذين يعيشون في الغيتو يبلغ 69 مهاجراً، مقارنة بالغينيين الذين يشكلون 190 مهاجراً. مع العلم أن عدد المهاجرين الكاميرونيين كان أكبر من عدد الغينيين، حسب ما علمنا من الإخباريين، لم تتمكن من معرفة العدد بدقة لكي نقوم بعملية المقارنة، لأننا نشغل في مجال غير مهيكّل من حيث البيانات الإحصائية، لكن اكتفينا بما قدمه لنا الإخباريون. ويرجع تراجع عدد المهاجرين الكاميرونيين إلى تراجع عدد المهاجرين القادمين من بلدهم الأصلي، في مقابل نجاح عبورهم عبر الحدود نحو البلدان الأوروبية. إلا أن تراجع حركيتهم عبر الحدود من بلدانهم الأصلية ونجاحهم في العبور نحو أوروبا أدّى إلى تراجع سلطتهم داخل الفضاء، مما جعلهم يتحولون من القوة إلى الضعف، في مقابل ارتفاع عدد المهاجرين الغينيين إلى 190. ويفسّر التوافد بارتفاع عدد المهاجرين القادمين من بلد غينيا، مما جعل هذا التوافد يشكل لهم قوة داخل الفضاء، وجعلهم يرغبون في السيطرة على الغيتو⁴.

3. احتكاك وإنتاج الصراع

في 6/6/2019، كنت بالغيتو في مدينة الدار البيضاء، بحي أولاد زيان، وسط الغيتو، في المكان المخصص للعب القمار، رفقة مهاجر من كوت ديفوار. كنا واقفين بجانب الكلفازور، وسرعان ما سمعنا صراخاً قادماً من جانب لعبة القمار الإفريقية. تجمع الجميع بجانب اللعبة وبدأ العراك بين مهاجرين بشرتهم سوداء، والجميع يشاهد مهاجرين يتقاتلان: الأول طويل القامة والآخر قصير القامة. لم أستطع أن أحدد هوية كل مهاجر، لكن سرعان ما جاء مهاجر آخر مسرعاً وتدخل في الصراع، ودفع المهاجر الطويل وأمسك المهاجر القصير إلى الجانب الآخر، بينما أمسك المهاجرون الآخرون بالمهاجر الطويل. بعدها سألت المهاجر الذي يقف بجانبني: ما الذي يقع في الغيتو؟

فكان جواب حسن: المهاجر الطويل من غينيا، بينما المهاجر القصير من بوكينا فاسو، والمهاجر الذي تدخل هو زعيم مهاجري بوكينا فاسو، والآخرون الذين يحيطون باللعبة أغلبهم غينيون، لأن هذه المنطقة يستحوذ عليها الغينيون. كنت أعتقد أن تدخل المهاجرين سوف ينهي الصراع، لكن سرعان ما بدأ شجار من جديد وضرب متبادل بين المهاجرين. لكن هذه المرة، بمجرد أن

سقط المهاجر قصير القامة على الأرض، حتى تدخل مهاجر قوي ودفع المهاجر الطويل، فسقط على الأرض وانحال عليه بالضرب . وتجمع الجميع من جديد وبدأوا يفرقون بين المتصلعين . بينما حسن، المهاجر المالي، بدأ بالضحك وقال لي " :انظر إلى هذه المجموعة، إنهم من بوكينا فاسو . لقد تجمعوا من أجل الصراع . " وهذا ما لاحظته أيضًا، لكنني لم أستطع التمييز إلى أي مجموعة ينتمون .

إذا رأينا العامل الذي لا يتغير في حبكة الصراعات في الغيتو، وهم الغينيون الذين يوجلون في كل الصراعات التي عرضناها، بعد صراعاتهم مع السنغاليين والكاميرونين، فنجدهم يتصلعون مع مهاجري بوكينا فاسو . غير أن سيادة لون البشرة السوداء جعلتني لا أستوعب هويات المتشاجرين، لهذا استندت إلى المهاجر المالي الذي أخبرني بأن الصراع يقع بين الغينيين والبوكينيين . ورغم وجود مهاجرين يحيطون بالصراع، إلا أنه لم يتدخل أي مهاجر لفك الصراع بين المهاجرين، إلا أن تدخل قائد مجموعة بوكينا فاسو ليمسك بالمهاجر الذي ينتمي إليه ويأخذه جانبًا، لأنه يدرك معنى الصراعات التي تقع داخل الغيتو . لهذا نجد الغينيين في البداية لم يهتموا بأن يمسكوا بالمهاجر الذي ينتمي إليهم، لأنهم يلوكون أنهم مجموعة قوية داخل الغيتو، بينما البوكينيين لا يمثلون سوى 21 مهاجرًا، نسبةً إلى الإحصائيات التي حصلنا عليها . غير أن الصراع لم يتوقف، بل تطور بين المهاجرين، ليتدخل مهاجر آخر من بوكينا فاسو ويبعد المهاجر الذي ينتمي إلى الغينيين، لتتجمع مجموعة بوكينا فاسو استعدادًا لأي معركة قد تقع . لكن لم يتطور العراك لأن مجموعة بوكينا فاسو انسحبت من الصراع، لأنها تترك مخلفات الصراعات، أي كونها مجموعة أقل (21) مهاجرًا (مقلنة بالمجموعة الغينية 190) مهاجرًا . (وبالتالي، فالصراعات تأخذ في البداية شكل شجار عادي، لكن الصراع يتطور ويصبح صراع مجموعات، وكل مجموعة تدافع عن المهاجر الذي ينتمي إليها هويًا).

4. من الصراع في الحدود إلى الغيتو:

ليس كل الصراعات التي تقع داخل فضاء المهاجرين مصدرها فقط الاحتكاكات اليومية، بقدر ما أن احتكاكات أخرى تقع في الحدود ويتم نقلها إلى الغيتو بعد التقاء الفاعلين وجهاً لوجه في ساحة الغيتو، مثل الصراع الذي وقع بين مجموعة من المهاجرين الماليين ومهاجر غيني سرق لهم نقودهم في الحدود . فكما صرح لنا الإخباري بقوله " :لقد أتت مجموعة من المهاجرين الماليين من المناطق الحدودية إلى غيتو الدار البيضاء، وبدأوا يتناقشون بشكل مرتفع . الجميع يعتقد بأن هناك مشكلًا واقعا . بعدها اكتشف بأن مهاجرًا غينيًا سرق لهم نقودهم في الغابة، بعدها فر من الغابة وجاء إلى الغيتو والتقى مع المهاجرين الذين سرقهم، وقام صراع بينهم، ولكن لم يتطور حيث تدخل رئيس الغيتو وحل الأمر بلطاع النقود إلى المهاجرين الماليين . "

يتبين من المعلومات التي قدمها لنا الإخباري أن الصراعات التي تقع في المناطق الحدودية يكون لها صدى في المناطق الداخلية التي يتواجد فيها المهاجرون، وبالأخص الغيتو العشوائي بالدار البيضاء، الأمر الذي يجعلنا نقول إن المشاكل التي تقع في الغابة بالمناطق الحدودية يتم نقلها وتحيلها إلى المناطق الداخلية . إلا أنه تم حل المشكل بتدخل زعيم المهاجرين الماليين (Ka)، وتم حله بقوانين الغيتو . فالصراع الذي وقع بين الغينيين والماليين يختلف عن باقي الصراعات الأخرى، لكون الماليين هم من يتزعمون الفضاء بعد طرد الكاميرونين وزعيمهم من طرف الغينيين . تم انتخاب زعيم جديد من طرف المجموعات المتبقية في الفضاء، حيث وقع الاختيار على مهاجر مالي ملقب بـ (Kamara)، بعد أن تحالفت كل من المجموعة السنغالية وبوكينا فاسو وكوت ديفوار والنيجر للتصويت لصالح المهاجر المالي، لتتشكل قوة واحدة في مواجهة قوة المهاجرين الغينيين، لأن الماليين يشكلون قوة بعد الغينيين . ومع تصويت المهاجرين الآخرين جعلهم يحصلون على شرعية أقوى، لهذا التزم المهاجر الغيني بد النقود إلى المهاجرين الماليين بعد أن

فرض عليه ذلك قرار زعيم الفضاء، لأن المالكين لن يلتزموا بالصمت كما هو بالنسبة إلى المجموعة الأخرى، كونهم يشكلون قوة عددية تضاعفت قوتهم بسبب عودة مجموعة من المهاجرين من الغابة بعد أن فشلوا في عبور الحدود، نظرًا لأن مهاجرًا قد سرق نقودهم، مما جعلهم يتكاثرون ويشكلون قوة في الغيتو. وبالتالي، ففشل العبور قد يشكل خيبة أمل للمهاجرين، ولكن في الوقت نفسه ينتج قوة لهم في فرض سلطتهم في الغيتو.

5. تحالفات صغيرة وإنتاج قوة عنيفة

تتميز الصراعات في الغيتو بإيقاعات متنوعة؛ فهناك صراعات تقع بين مجموعة في مواجهة مجموعة أخرى، بيد أن هناك صراعات أخرى تتحالف فيها المجموعات الصغيرة الأقل عددًا لتشكيل عددًا كبيرًا لمواجهة مجموعة أخرى. وهنا نتحدث عن مواجهة بين تحالف المالكين والكاميرونين ضد الغينيين. وتزجج الواقعة، حسب إخباري، إلى مهاجر من غينيا أخذ الهاتف من مهاجر مالي. الكل يعرف داخل الغيتو أن الغيني هو من سرق الهاتف، وبدأ النقاش بعد منتصف الليل بين الغينيين والمالكين. في الوقت نفسه خرج مهاجر في حالة سكر يحمل في يده قنينة خمر من زجاج وضرب بها مهاجرًا ماليًا. من هنا بدأ الصراع؛ حيث انسحب المليون من الغيتو إلى الخارج، بينما تجمع الكاميرونيون وأتوا إلى الغيتو ليتحالفوا مع المالكين ضد الغينيين، وشكلوا مجموعة واحدة ضد الغينيين ودخلوا إلى الغيتو، وبدلوا يتقاتلون في ما بينهم بواسطة العصي والحديد والحجارة. انخرم الغينيون في الموكبة وأحرقوا الغيتو. كان الغينيون أكثر عددًا، خسروا الصراع وقاموا بحرق الغيتو. وبالنسبة إلى الجنسيات خرج الغيتو، لم يقع معهم في الصراع شيء، سواء السنغاليين أو الإيفوريين أو البوكينابيين. البعض خسروا الأموال الموجودة في الغيتو. قامت المجموعة المالية بتشكيل مجموعات والبحث عن الغينيين في كل مكان وضربهم. كل شيء ضاع من إبراهيم؛ فر الغينيون من المكان ولم يبق غيني واحد. الكل خرج ويشاهد، ولم يتدخل أحد في الصراع.

فمن خلال هذه المعطيات الميدانية يتضح أن الصراع الذي وقع في الغيتو بين الغينيين والمالكين يعود سببه إلى سرقة مهاجر غيني لهاتف مهاجر من مالي. هذا الفعل الذي انتقل إلى صراع عنيف بين المجموعة المالية والغينية، ولكن المجموعة المالية كانت تدرك أن الغينيين أكثر عددًا، وكان الغينيون يكونون قوة المالكين، كما صرح مهاجر من مالي سابقًا. غير أن هذه القوة توجت إلى عقد تحالفات بين المالكين والكاميرونين ضد الغينيين. لهذا نرى أن الإخباري يقول: "بعد أن قام مهاجر من غينيا بضرب مهاجر من مالي، قام المهاجرون المليون بالانسحاب من الغيتو وتجمعوا خارج الغيتو، بينما ظل الغينيون في الغيتو". غير أن فكرة الانسحاب كانت لترتيب الصفوف في مواجهة الغينيين، من خلال تحالف مع الكاميرونين. غير أن التحالف مرتبط بما تعرضت له مجموعة الكاميرونين من معاناة يومية خارج الغيتو، كما لاحظنا نوم مهاجرين كاميرونيين في الشوارع، حيث تولدت لهم رغبة في الحصول على مكان داخل الغيتو، بالإضافة إلى الانتقام من الغينيين. لهذا نجد هذا التحالف بين مجموعتين ضد مجموعة واحدة؛ فكون الغينيين يمثلون عددًا كبيرًا في الغيتو، فتحالف المالكين مع الكاميرونين يسوي المجموعة الغينية، لهذا نجد المجموعتين تنتصرون في موكتهما ضد المجموعة الغينية.

فبين الشعور بالانتصار والشعور بالهزيمة يتولد الحقد بين المهاجرين، لكن هذا الحقد مبني على الهوية؛ فالمهاجرون يتعارفون على بعضهم البعض انطلاقًا من الشعور بالانتماء إلى البلد نفسه. هذا الشعور ولد لدى مجموعة الغينيين ضرورة الانتقام من المجموعتين،

وذلك بحرق الغيتو بشكل كامل، كون المجموعتين سوف تستفيدان من السكن في الغيتو بين الغينيين، وسوف يعيشان خارج الغيتو. هذا التحول قادهما إلى حرق الغيتو، مما جعل الجميع يعيد إنتاج حياته في تشتت في الشوارع المحاذية للمحطة.

خلاصة البحث

تبين هذه الدراسة أن الغيتو الذي تشكل في الدار البيضاء جاء نتيجة سياسة الترحيل من الحدود إلى المناطق الداخلية، نتيجة سياسة تشديد مراقبة الحدود¹، مما جعل المهاجرين يعملون ابتكار حياتهم داخل المدن في شكل «غيتو»، حيث يتميز بالعولة وتقييد حركتهم تجاه الحدود. غير أن هذه الحياة تتميز بصراعات يومية عنيفة؛ تبدأ هذه الصراعات بمواجهة فردية بين المهاجرين لتتحول إلى صراعات مجموعة مهاجرة تجاه أخرى، وتصبح الهوية والانتماء هما المحددين الرئيسيين للصراع. فرغم وضع المهاجرين لقوانين لإدارة صراعاتهم اليومية، إلا أن هذه الصراعات تخضع لمنطق القوة، حيث تعتبر المجموعة التي تمتلك أعداداً كبيرة هي المجموعة القوية، مما يجعل من حوكية المهاجرين من بلادهم إلى المغرب، أو من ترحيلهم من الحدود، عاملاً مهماً في رفع أعداد المجموعة ومن قوتها في الغيتو. بينما يؤدي عبور المهاجرين من مجموعة معينة إلى تراجع قوتهم وتوسيع نفوذ وقوة المجموعات الأخرى التي فشلت في عبور الحدود، غير أن المجموعات الصغيرة تتحالف مع بعضها البعض لتشكيل قوة تواجه المجموعة الكبيرة.

كما نستخلص أن الصراعات اليومية التي تنتج عن الاحتكاكات ليس مصدرها كله الغيتو؛ فالبعض منها أيضاً مصدره الحدود، بمعنى أن الصراعات التي تقع في الغابات تُنقل إلى المدن، مما يجعلنا نستنتج أن ما يقع في الحدود ينعكس على المدن الداخلية، لأنها تحولت إلى مناطق حدودية بفعل سياسة الترحيل التي تصنع مسافة كبيرة بين المهاجرين والحدود، وتصبح المدن الداخلية هي مكان انتظار المهاجرين لعبور الحدود.

¹ Sylvie Mazzella, *Sociologie des migrations* (Paris : Presses Universitaires de France, 2021), P13

المراجع والمصادر:

- بورديو بير بؤس العالم، ترجمة محمد صبح، (دمشق، دار كنعان، 2001)
- فاكنت، لوبيك، أمريكا من حيث هي مدينة فاضلة (طوبائية) مقلوبة، بؤس العالم، (دمشق، دار كنعان، 2001)
- Mazzella Sylvie, *Sociologie des migrations* (Paris : Presses Universitaires de France, 2021)
- wacquant loic , in Praise of Praise of thickconstrction, Qualitative sociology, 48, 335 – 345 , 2024
- Genova Nicholas Se, " Migrant illégalité and Deportability in Everyday life" vol 31 : 419 . 447, 2002
- Expulsion, pouvoir, mobilisation " cairn info, n83, 2018
- Hachet Benoit, "enquêter sur les temporalités Application au cas des migrations" cairn info n2 2026 P 1.4
- *Sociologie des temporalités* (Paris, Armand colin, 2025)
- haddad .emma . "danger happens at the border" in borderscapes. hidden geographies and politics at territory s edge university of Minnesota press Minneapolis. london . 2007 P. 120